



خطبة صلاة الجمعة 6/6/2014 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(أخطاء شائعة (17) - قليلٌ من يفخر بزوجته)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونستترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ، فَإِذَا هُوَ تَرَعَّ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ، زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخطبة السابعة عشرة في سلسلة: (أخطاء شائعة)

هدف السلسلة السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً، وشعارها: (أسرتي سكاني ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملتنا المالية مرةً أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الأول، وعنوانها: (قليلٌ من يفخرُ بزوجته)

أيها الإخوة:

وجدتُ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يفخرُ بزوجته ويثني عليها ويمدحها في عزلةٍ من الناس حيناً وفي حضورهم حيناً، فهذا هو صلى الله عليه وسلم يقول في حق السيدة خديجة: «آمَنْتُ بِإِذْ كَفَرِ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي بِمَا هَذَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ» رواه أحمد.

ويسأله عمرو بن العاص: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ فيقول صلى الله عليه وسلم: «عَائِشَةُ» رواه الترمذي.

وفي كتب الفضائل من كتب الحديث أحاديثٌ كثيرةٌ يمدح فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زوجاته الطاهرات ويثني عليهنَّ ويفخرُ بهنَّ.

قليلٌ ما يشكرُ الأزواج زوجاتهم، وقليلٌ ما يمدحوهنَّ ويثنون عليهنَّ ويفخرون بهنَّ.

أذكرُ أنني قرأتُ مقالاً للشيخ على الطنطاوي يمدح فيه زوجته فأحببتُ أن أشارككم قراءته في هذه الخطبة.

والشيخ علي الطنطاوي -لمن لا يعرفه من شبابنا اليافعين- أديبٌ خطيبٌ فقيهٌ قاضٍ مستشارٌ في محكمة النقض وأستاذٌ محاضرٌ في كليتي الشريعة والحقوق، من وفيات عام 1999 للميلاد، لقبوه بأديب الفقهاء وفقه الأديب.

يقول الشيخ:

أكتبُ عن زوجتي فأين مكانُ العيب في ذلك؟ ولماذا يكتبُ المحبُّ عن الحبيبة وهي زوجٌ بالحرام، ولا يكتبُ الزوج عن المرأة وهي حبيبتُه بالحلال؟

ولماذا لا أذكرُ الحقَّ من مزاياها لأرغبَ الناسَ في الزواج. والعاشقُ يصفُ الباطلَ من محاسنِ العشيقة فيحبب المعصيةَ إلى الناس؟

إن الناس يقرؤون كلَّ يوم المقالات والفصول الطوال في مآسي الزواج وشرويه، فلم لا يقرؤون مقالة واحدة في نعمه وخيراته؟

ولستُ بعدُ أكتبُ عن زوجي وحدها؛ ولكني كما كان هوجو يقول: (إني إذ أصفُ عواطفِي أباً، أصفُ عواطفَ جميعِ الآباء)

لم أسمعُ زوجاً يقول إنه مستريحٌ سعيدٌ، وإن كان في حقيقته سعيداً مستريحاً، يشكو الأزواجُ أبداً نساءهم، ولا يشكر أحدُهم المرأةَ إلا إذا ماتت، وانقطع حبُّه منها وأملُهُ فيها؛ هنالك يذكر حسناتها، ويعرفُ فضائلها.

أما أنا فإني أقول من الآن - تحدثاً بنعم الله وإقراراً بفضلِهِ -: إني سعيدٌ في زوجي وإني مستريح.

وقد أعاني على هذه السعادة أمورٌ يقدر عليها كل راعٍ في الزواج، طالبٍ للسعادة فيه:

أولها- أُنِي لم أخطبُ إلى قومٍ لا أعرفُهم، ولم أتزوج من ناسٍ لا صلةَ بيّ وبينهم.. فينكشفُ لي بالمخالطة خلافُ ما سمعتُ عنهم، وأعرفُ من سوء دخيلتهم ما كان يسترُهُ حسنُ ظاهرهم، وإنما تزوجتُ من أقرباء عرفتهم وعرفوني، واطلعتُ على حياتهم في بيتهم، واطلعوا على حياتي في بيتي.

إذ رُبَّ رجلٍ يشهد له الناس بأنه أفكهُ الناس، وأنه زينةُ المجالس ونزهةُ الجامع، وهو في بيته أثقل الثقلاء.

ورب سَمَحٍ هو في أهله سَمَحٌ، وكريمٍ هو في أسرته بخيل، يغتر الناس بحلاوة مظهره فيتجرعون مرارة مخبره...

تزوجتُ بنتاً أبوها ابنُ عمِ أمي، وهو الأستاذ صلاح الدين الخطيب، شيخ القضاء السوري، المستشار السابق وال كاتب العدل. وأمها بنتُ المحدث الأكبر، عالم الشام بالإجماع الشيخ بدر الدين الحسني -رحمه الله-. فهي عريقةُ الأبوين، موصولةُ النسب من الجهتين.

والثاني- أُنِي اخترتُها من طبقةٍ مثل طبقتنا. فأبوها كان مع أبي في محكمة النقض، وهو قاضٍ وأنا قاضٍ، وأسلوب معيشتهم قريبٌ من أسلوب معيشتنا، وهذا هو الركن الوثيق في صرح السعادة الزوجية، ومن أجله شرط فقهاء الحنفية (وهم فلاسفة الشرع الإسلامي) الكفاءة بين الزوجين.

والثالث- أني انتقيتها متعلمةً تعليمًا عاديًا، وقد استطاعت الآن بعد ثلاثة عشر عاماً في صحبتي أن تكون على درجة من الفهم والإدراك، وأن تذوق ما تقرأ من الكتب والمجلات، لا تبلغها المتعلماتُ التعليم العالي! وإن كُنَّ أحفظَ لمسائل العلوم، يحفظنَ منها ما لم تسمع هي باسمه.

والرابع- أني لم أبتغِ الجمالَ وأجعلهُ هو الشرطَ اللازمَ الكافي - كما يقول علماء الرياضيات - لعلمي أن الجمال ظلُّ زائلٌ؛ لا يذهب جمالُ الجميلة، ولكن يذهب شعورك به، وانتباهك إليه؛ لذلك نرى من الأزواج من يتركُ امرأته الحسنة ويلحقُ من لسنَ على حظٍّ من الجمال.

والخامس- أن صِلتي بأهل المرأة لم يجاوز إلى الآن -بعد ثمنِ قرنٍ من الزمان- الصلةَ الرسمية: الودُ والاحترامُ المتبادل، وزيارةُ الغب، ولم أجد من أهلها ما يجذُّ الأزواج من الأحماء من التدخُّل في شؤونهم، وفرضِ الرأي عليهم، ولقد كنا نرضى ونسخطُ كما يرضى كلُّ زوجين ويسخطان، فما دخل أحدٌ منهم يوماً في رضانا ولا سخطنا.

ولقد نظرتُ إلى اليوم في أكثرَ من عشرين ألف قضية خلافٍ زوجي، وصارت لي خبرة أستطيع أن أوكد القول معها بأنه لو تركَ الزوجان المختلفان، ولم يدخل بينهما أحدٌ من الأهل ولا من أولاد الحلال، لانتَهت بالمصالحة ثلاثة أرباع قضايا الزواج.

والسادس- أننا لم نجعل بداية أيامنا عسلاً، كما يصنع أكثر الأزواج، ثم يكون باقي العمر حنظلاً مرّاً وسُمّاً زعافاً، بل أريتها من أول يومٍ ما أنا عليه، حتى إذا قِبلت مضطّرةً به، وصبرت محتسبةً عليه، عُدْتُ أريها من حُسن خُلقي، فصرنا كلما زادت حياتنا الزوجية يوماً زادت سعادتنا فيراطاً.

والسابع- أني تركتُ ما لقيصر لقيصر، فلم أدخُل في شؤونها من ترتيبِ الدار وتربية الأولاد؛ وتركْتُ هي لي ما هو لي، من الإشرافِ والتوجيه، وكثيراً ما يكونُ سببُ الخلاف لبُس المرأة عِمامةَ الزوج وأخذها مكانه، أو لبُسه هو صِدَار المرأة ومشاركتها الرأي في طريقةِ كنسِ الدار، وأسلوبِ تقطيعِ الباذنجان، ونمطِ تفصيل الثوب!.

والثامن- أني لا أكتُمها أمراً ولا تكثُمني، ولا أكذبُ عليها ولا تكذبني، أخبرها بحقيقة وضعي المالي، وأخذها إلى كل مكانٍ أذهب إليه أو أخبرها به، وتخبرني بكل مكان تذهب هي إليه، وتعوّد أولادنا الصدقَ والصراحة، واستنكارَ الكذب والاشتمزازَ منه.

ولستُ -والله- أطلبُ من الإخلاصِ والعقلِ والتدبيرِ أكثرَ مما أجدهُ عندها. فهي من النساءِ الشرقياتِ اللاتي يَعِشْنَ للبيتِ لا لأنفسهنَّ، للرجلِ والأولادِ، تجوعُ لأكلِ نحنُ، وتسهرُ لنامٍ، وتتعبُ لنستريحَ، وتنفى لنبقى.

هي أولُ أهلِ الدارِ قياماً، وأخِرُهم مناماً، همُّها إراحَتنا وإسعادُنا.

إن كنتُ أكتبُ، أو كنتُ نائماً أسكنتِ الأولادَ، وسكنتِ الدارَ، وأبعدتِ عني كلَّ منَعٍ أو مزعجٍ، تحبُّ من أحبُّ، وتُعادي من أعادي.

إنَّ حرصَ النساءِ على رضا الناسِ كان حرصُها على إرضائي. وإنَّ كان مُناهَنَ حليَّةٍ أو كسوةً فإنَّ أكبرَ مُناها أن تكون لنا دارٌ نملكُها نستغني بها عن بيوت الكراء.

تحبُّ أهلي، ولا تفتأُ تنقلُ إليَّ كلَّ خيرٍ عنهم. إن قصَّرتُ في برِّ أحدٍ منهم دفعَتني، وإن نسيْتُ ذكْرَتي. إنَّها النموذجُ الكاملُ للمرأةِ الشرقية، التي لا تعرفُ في دنياها إلا زوجها وبيتها، والتي يزهد بعضُ الشبابِ فيها.

إنَّ نساءنا خيرُ نساءِ الأرض، وأوفاهنَّ لزوجٍ، وأحناهنَّ على ولدٍ، وأشرفهنَّ نفساً، وأطهرهنَّ ذيلاً، وأكثرهنَّ طاعةً وامتنالاً وقبولاً لكلِّ نصحٍ نافعٍ وتوجيهٍ سديدٍ.

أيها الإخوة:

إنَّ الثناءَ على الكريمِ يزيدهُ كرمًا وأدبًا واجتهاداً، وإنَّ فخرَ الرجالِ بزوجاتهم يزيدهنَّ أدباً وطاعةً وتعلقاً بأزواجهنَّ، والإحسانُ جزاءُ الإحسانِ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يعيَّننا على تصحيحِ أقوالنا وأفعالنا حتى يُعجِّلَ لنا بالفرجِ.

والحمد لله رب العالمين